

الفقهاء بين حل المشاكل وجلب المشاكل

اشتهر تعريف الفقه الإسلامي بأنه « العلم بالأحكام الشرعية العملية ، المكتسب من أدلتها التفصيلية » .

ومعنى هذا أن الفقيه يبحث في الأدلة الشرعية وينظر فيها ، ويستخرج منها ما دلت عليه من أحكام تتعلق بأفعال العباد وتصرفاتهم .

والفقه بهذا المعنى يقع على ثلاثة مستويات :

١- شرح النصوص الشرعية وتقرير الأحكام الفقهية التي تضمنتها ودلت عليها ، وبيان ذلك للناس ، على نحو ما يفعله المفسرون وشرح السنة النبوية والفقهاء في مؤلفاتهم .

٢- إفتاء الناس ببيان الحكم الشرعي في نوازلهم وأحوالهم واستفتاءاتهم المعينة ؛ أي نقل الحكم الشرعي المقرر على نحو عام ومجرد ، وتنزيل مقتضاه على الحالات المعينة أو الموصوفة .

٣- الاجتهاد فيما لم يسبق له حكم مقرر معلوم ، فيجتهد الفقيه البالغ رتبة الاجتهاد في استنباط الحكم وتقديره للوقائع والمشاكل والحالات المستجدة ، سواء كانت جذتها كلية أو جزئية . وأعني بالجددة الكلية الحالات والوقائع والإشكالات غير المسبوقة ، وأما الجدة الجزئية فأعني بها الأحوال والأفعال المعروفة ، والمعروف

حكمها من قبل ، لكن دخلت عليها أو أحاطت بها عناصر جديدة غيرت حالتها وأثرت في حكمها .

فهذه هي الدوائر الثلاث التي يتحرك فيها فقه الفقهاء واجتهاد المجتهدين .

وفي كل هذه الأحوال ، فإن العالم الفقيه بمثابة الطبيب الذي الذي ينظر في حالة المريض وحاجته ، ثم ينظر فيما بين يديه وما هو متاح له من أدوية وعلاجات ، ويتصرف بناء على ذلك بما يحقق المقصود ، وهو الشفاء والعافية . يَبْدُ أن التطبيب الشرعي لا يقف عند معالجة المرضى بعد مرضهم وظهور الآلامهم ، بل هو قبل ذلك يعالج الأصحاء أنفسهم ، حتى يزدادوا صحة ومناعة وبُعْدًا عن الأمراض . وهذه بالضبط هي الوظيفة التي يقوم بها ويشرف عليها علماء الشريعة .

فرسالة علماء الشرع هي أن يكونوا أطباء صيانة ووقاية ، وحُرَاسَ حصانة وحماية ، وأن يكونوا مستكشفين مشخصين للأعراض والأمراض ، عاكفين على معالجتها ورفع آلامها ودفع تداعياتها .

وإذا كان : « العلماء ورثة الأنبياء » ، كما في الحديث الشريف ، فمعناه أنهم خلفاء الأنبياء فيما بُعثوا به وما بعثوا لأجله . قال العلامة عبد الرؤوف المناوي : « العلماء ورثة الأنبياء » ؛ لأن الميراث ينتقل إلى الأقرب . وأقرب الأمة في نسبة الدين العلماء الذين أعرضوا عن الدنيا وأقبلوا على الآخرة ، وكانوا للأمة بدلا من

الأنبياء الذين فازوا بالحسينين العلم والعمل ، وحازوا الفضيلتين الكمال والتكميل « (١) .

وقد بين الله تعالى المقاصد والغايات التي لأجلها بعث الأنبياء ، ويرثها عنهم العلماء . من ذلك قوله ﷺ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾

[الحديد: ٢٥]

وقوله سبحانه عن مهمة خاتم الرسل ﷺ : ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ .

[الأعراف: ١٥٧]

وقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

فشأن العلماء أنهم وارثون لكل هذه الصفات والمسؤوليات . يقيمون القسط ويحكمون به ، ويعملون على تطبيقه وتحقيقه . يأمرهم بالمعروف وينشرونه وينصرونه ، وينهون عن المنكر ويمنعونه أو يعارضونه ، يُحلون للناس طيبات الأرزاق والأفعال ، ويحذرونهم خبائثها ومفاسدها ، يرفعون عن الناس الأصار والأغلال التي تكبل عقولهم وتضني حياتهم .

قال الإمام الشوكاني ~ : « فالعالم المرتاض بما جاءنا عن

الشرع . . إذا أخذ نفسه في تعليم العباد وإرشادهم إلى الحق وجذبهم عن الباطل ودفعهم عن البدع ، والأخذ بحُجَزهم عن كل مزلة من المزالق ومَدْحضة من المداحض ، بالأخلاق النبوية والشمال المصطفوية . . فيَسَّرَ ولم يُعَسِّر ، وبشر ولم ينفر ، وأرشد إلى ائتلاف القلوب واجتماعها ، ونهى عن التفرق والاختلاف ، وجعل غاية همه وأقصى رغبته جلبَ المصالح الدينية للعباد ودفعَ المفاسد عنهم ، كان أنفعَ دعاة المسلمين ، وأنجعَ الحاملين لحجج رب العالمين «^(١) .

وهذا هو منهج القرآن وهدى نبي القرآن . فالله تعالى أنزل شرائعه وحدد تكاليفه ، ورتب على كل ذلك وعدا ووعيدا ، ومساءلة وحسابا ، وثوابا وعقابا . وقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] .

وقال محذرا : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْجَنِّ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَاهُوَ لَأَنْزَلٌ ﴾ [الطارق: ١١-١٤] .

ولكنه مع ذلك نظر - سبحانه - بعين الرحمة والشفقة إلى طوائف من الناس أوشكوا أن يضيعوا ويهلكوا ، فرفع عنهم بأسهم ويأسهم ، وفتح أمامهم أملا عريضا يسعهم ويسع ضعفهم وتقصيرهم وما سلف منهم ، فقال جل وعلا : ﴿ قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ

لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ .

[الزمر: ٥٣]

ومن عجائب رحمة الله ولطفه بعباده ، قوله سبحانه في الحديث القدسي : « ما ترددتُ في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته ، ولا بد له من الموت » . والتعبير بالتردد هنا إنما هو كناية عن الرحمة البالغة والشفقة السابغة وكرهيته تعالى لكل ما يسوء عبده المؤمن ويؤذيه .

ما أريد أن أخلص إليه هو أن العلماء ، الذين هم ورثة الأنبياء ، يجب أن يكونوا مستحضرين لهذه المعاني وأمثالها ، متلبسين بها في فقههم واجتهادهم ، آخذين بها في فتاواهم وتوجيهاتهم للناس . هذا هو الواجب والمأمول .

ولكن الواقع أننا نجد دائما بعض المحسوسين على العلم والفقه والإفتاء في الدين ، بدل أن يقدموا للناس الحلول والمخارج والبدائل لمشاكلهم ومعاناتهم ، يصبحون هم صناع المشاكل والمتاعب والآصار والأغلال . يفعلون ذلك بسوء فهمهم لأدلة الشريعة وأحكامها .

وقد جرَّ هؤلاء على الناس مشكلاتٍ كثيرةً لم تزل تُعْنِتُ الخلق وتُشْجِي الخلق ، كما قال العلامة ابن عاشور ^(١) .

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية ، ص ٩٢ .

وأسوق على ذلك مثالا بالغ الدلالة ، مما ذكر في السنة النبوية الشريفة .

ففي صحيح مسلم : عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدلَّ على راهب ، فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا ، فهل له من توبة ؟ فقال : لا . فقتله فكمَّل به مائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدلَّ على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناسا يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك ، فإنها أرض سوء .

فانطلق حتى إذا نَصَف الطريقَ أتاه الموت . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله . وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي ، فجعلوه بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له . فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » .

فهذا الرجل بعد أن سئم حياة القتل والإجرام ، وتاقت نفسه لحياة جديدة نقية ، قام يسأل عن أعلم علماء زمانه ، لعله يعطيه لحالته حلاً ومخرجاً . فإذا به يصل إلى شخصين ، كل منهما يُنعت بأنه أعلم أهل زمانه ... وهما في الحقيقة نموذجان لصنفين من الفقهاء :

صنف يجلبون المشاكل بفقههم وفتاويهم ، أو يزيدون الناس مشاكل إلى مشاكلهم ، وصنف آخر يحلون المشاكل بفقههم وفتاويهم ويُفَرِّجون عن الناس .

فالعالم الأول - في الحديث - أفتى السائل بأن لا توبة له ، بمعنى أن مشكلته ليس لها في الدين حل ولا مخرج ! . ولذلك قتله هو أيضا وأكمل به المائة من قتلاه ، فكانت هذه إحدى النتائج الطبيعية لمثل تلك الفتوى . وقد كان يمكن أن يقتل آخرين أيضا .

والعالم الثاني فتح للسائل باب التوبة والفرج ، ووصف له العلاج والمخرج ، وأعطاه أكثر مما طلب ، ووضح له أن البيئة التي جعلت منه مجرما لا يمكن أن تساعد على توبته وحياته الجديدة : فقال له : « انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناسا يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك ، فإنها أرض سوء » .

فهذا هو فقه الحق ومنقذ الخلق .

وقد كان من هدي النبي ﷺ في إجابة السائلين أن يتجاوز ما سألوا عنه إلى غيره من التوضيحات والإرشادات المفيدة لهم في مسألتهم ، ولو لم يسألوا عنها . من ذلك ما في صحيح البخاري : «باب من أجاب السائل بأكثر مما سأل» ، وفي الباب حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أن رجلا سأل : ما يلبس المحرم ؟ فقال : « لا يلبس القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا البرنس ، ولا ثوبا مسه الورس أو الزعفران ، فإن لم يجد النعلين فليلبس الخفين ، وليقطعهما

حتى يكونا تحت الكعبين» .

فالسائل سأل عما يلبسه المحرم في الحج أو العمرة ، لكن النبي ﷺ زاده على ذلك ، ووضح له ما يلبسه وما لا يلبسه ، وفي حال لم يجد كذا أن يفعل كذا بطريقة كذا .

قال الفقيه المالكي المَهَلَّب بن أبي صفرة : « وإنما زاده لِعِلْمِهِ بمشقة السفر وقلة وجود ما يحتاج إليه من الثياب فيه ، ولما يلحق الناس من الحفي بالمشي ، رحمة لهم وتنبهها على منافعهم ، وكذلك يجب على العالم أن ينبه الناس في المسائل على ما يتفعلون به ، ويتسعون فيه ، ما لم يكن ذريعة إلى ترخيص شيء من حدود الله » ^(١) .

